الأخاء

مجلة علمية تاريخية أدبية برواية مصورة

﴿ مصر نوفمبر (تشرين ثاني) سنة ١٩٢٦ — جماد أول سنة ١٣٤٥ ﴾

(الشيخ ناصيف اليازجي)

أمضي وتبقى صوري فتعجبوا تمضي الحقائق والرسوم تقيم
والموت تجلبه الحياة فلو حوى روحاً لمات الهيكل المرسوم

هو ناصيف بن عبد الله بن ناصيف بن جنبلاط بن سعد اليازجي اللبناني المولد الحمصي الأصل . هاجر جده سعد من حمص مع جماعة من أهله نحو سنة ١٦٩٠ لظلم وقع عليهم . فسكن بعضهم في سواحل لبنان في الجهة المعروفة « بالغرب » وآخرون في وادي التيم من أعمال دمشق وتوطن بعضهم في جهات أخرى ومعظمهم من طائفة الروم الارثوذكس أما فرع الشيخ ناصيف فانه ينتمي الى طائفة الروم الكاثوليك .

ولد رحمه الله في بلدة كفر شيما من قرى سواحل لبنان في ٢٥ مارس (آذار) عام ١٨٠٠ م وتعلم مبادىء القراءة على القس متى من قرية بيت شباب . وكان والده عبد الله طبيباً شهيراً على طريقة ابن سينا، وفي الوقت نفسه كان شاعراً أديباً ولكنه قلما كان يقرض الشعر لقلة الأسباب الداعية اليه في تلك الأيام وقد نشأ ولده ناصيف على الميل الى الشعر . وأقبل على الدرس والمطالعة بنفسه فطالع ما وصلت اليه يده من كتب اللغة ودواوين الشعراء . ونظم الشعر وهو في العاشرة من عمره وكان يقصد الادبرة ويطالع في مكاتبها وينسخ منها كثيراً بخطه ويستعير الكتب وينسخها بخطه وقد برع في اللغة ونبغ في آدابها وتبرز في نظم الشعر حتى ما كان يجاري في زمانه

وذاع صيت علمه في أوائل أمره بين الخاص والعام فانتدبه السيد أغناطيوس الخامس بطريرك الروم الكاثوليك عام ١٨١٦ ليكون كاتباً عنده فلبث في هذه الوظيفة سنتين ثم اتصل بالامير بشير الشهابي فادناه منه وعينه كاتباً عنده فلبث في هذه الوظيفة مدة اثني عشرة سنة ولما خرج الامير من الديار الشامية عام ١٨٤٠ انتقل صاحب الترجمة الى بيروت وأقام فيها منقطعاً للمطالعة والتأليف والتدريس في المدرسة الوطنية والجامعة الاميركية . وقد طارت شهرته في جميع البلاد العربية وكاتبه أكابر الشعراء وفطاحل العلماء من مصر والعراق وسورية وغيرها وقد طبع ما دار بينهم وبينه في كتاب خاص عنوانه « فاكهة الندماء في مراسلة الشعراء »

وكان صاحب الترجمة معتدل القامة ممتلىء الأعضاء أسمر اللون حنطيه اسود الشعر أجش الصوت . وكان ذا هيبة ووقار وشهامة ومروءة كثير التواضع قليل الضحك نزيه اللسان لم تسمع له كلمة بذيئة لا في حديثه ولا في كتاباته ولم يهج أحداً ولا هجاه

أحد في زمانه ورووا له بيتين قالها ارتجالا في رجل بخيل يدعى الامير علي شباب وهما

قد قال قوم ان خبزك حامض والبعض أثبت بالحلاوة حكمه
كذب الجميع لزعمهم في طعمه من ذاقه يوماً ليعرف طعمه

وكان ودوداً مخلصاً رقيق القلب ذا عواطف شريفة وتقوى ومن صفاته انه ماكان يعطي مالا ولا يأخذ مالا بالربا ولا يكتب صكا فيه ربا وكان ذا قريحة وقادة وذكاء نادراً فكان يروي القصة بتواريخها وأسماء أصحابها وأسماء بلدانهم ومن غريب ذاكرته انه كان اذا نظم الشعر لا يكتبه بيتاً بيتاً ولكنه كان ينظم القصيدة ثم يكتبها حتى انه في خلال مرضه الاخير أملى ثمانية وعشرين بيتاً دفعة واحدة . وألف المقامة اليمامية وهو على ظهر الفرس حيث كان مسافراً الى بحمدون . وكان يحفظ القرآن كله ويحفظ من الشعر شيئاً كثيراً ولا سيما شعر المتنبي لشدة اعجابه به حتى أنه كان يقول : « كان المتنبي يمشي في الجو وسائر الشعراء يمشون على الارض »

وكان محافظاً على تقاليد أهله وبلاده في اللباس والطعام وسائر العادات فكان يلبس العمامة والجبة والقفطان ويضع الدواة في منطقته . وكان يكتب على ركبته وهو متربع فوق منبذة مطروحة على الحضيض وأمامه منضدة صغيرة لوضع القلم والحبر والورق . وكان رحمه الله مولعاً بتدخين التبغ بالغليون ويكثر من تناول القهوة ويروى من جملة نوادره انه زار المعلم ابراهيم سركيس في منزله فلما قدمت له القهوة أنشده ابراهيم هذا البيت :

قهوة البن حرام قد نهى الناهون عنها

فاجابه الشيخ ناصيف من فوره قائلا :

كيف تدعوها حراماً وأنا أشرب منها

وله رحمه الله مؤلفات كثيرة مشهورة ولا سيما في اللغة العربية وهي تدرس في أكثر مدارس سوريا وبعض المدارس المصرية وهاك أسماء ما وصلت الينا معرفته من تلك التآليف :

(١) فصل الخطاب في أصول لغة الاعراب | (٢) الجوهر الفرد في موجز الصرف

(٣) طوق الحمامة في مبادىء النحو
(٤) أرجوزة لحة الطرف في علم الصرف
(٥) ارجوزة الباب في أصول الاعراب
(٦) الجمانة في شرح الخزانة
(٧) نار القرى في شرح جوف الفرا
(٨) عمود الصبح
(٩) عقد الجمان في المعاني والبيان
(١٠) الطراز المعلم
(١١) نقطة الدائرة في العروض والقافية
(١٢) اللامعة في شرح الجامعة
(١٣) قطب الصناعة
(١٤) التذكرة في أصول المنطق
(١٥) القطوف الدانية
(١٦) مجموع الادب في فنون العرب
(١٧) الحجر الكريم في الطب القديم
(١٨) جمع الشتات في الاسماء والصفات
(١٩) وساعد المرسلين الاميركان في ترجمة الكتاب المقدس ونظم لهم المزامير وبعض الاغاني الدينية
(٢٠) العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب أتمه ولده الشيخ ابراهيم
(٢١) مقامات مجمع البحرين
(٢٢) ثلاثة دواوين شعرية

وقد تفنن في صناعة التاريخ الشعري تفننا غريباً أدهش الافكار وحير الابصار ومن أبدع ما نظمه في هذا الباب بيتان قالهما سنة ١٢٤٨هـ. في فتح مدينة عكاء اقترحهما عليه الامير بشير الشهابي وهما يتضمنان ٢٨ تاريخاً بحساب الجمل وذلك يحصل من كل شطر منهما ومن مهمل كل بيت منهما ومن معجمه ومن فاصل كل شطر مع معجم كل شطر فيها وبالعكس صدراً لصدر وعجزاً لعجز وبالخلاف سوى التاريخ الناطق لفظاً وهما:

في فتح عكا برد نار معاطب ... دار الخليل والديار بهـا البكا
رأس الثمان وأربعين بطيه ... مئتان مع الف فبـارك وبكا

ومن مبتكراته أيضاً في فن النظم بيتا المديح اللذان اذا عكست قراءتهما انعكسا هجاء وهما:

حلموا فما سامت لهم شيمٌ ... سمحوا فما شحّت لهم منن
سلموا فلا زلّت لهم قدم ... رشدوا فلا ضلت لهم سنن

فاذا عكست قراءتهما كانا كما يأتي

منن لهم شحت فما سمحوا ... شيم لهم سامت فما حلموا

سنن لهم ضلت فلا رشدوا قدم لهم زلت فلا سلموا

ومن مخترعاته « عاطل الماطل » وهو أن تكون حروف الكلمة خالية من النقط كتابة وهجاء وهي ثمانية في اللغة العربية وهي: ح — د — ر — ص — ط ل — ه — و . وقد نظم من هذا النوع أربعة أبيات لا يعرف لها مثيل في لغة العرب قال في مطلعها

حول درّ[1] حل[2] ورد[3] هل له لنحر ورد[4]

وقد حسد المسلمون المسيحيين عليه فقال في ذلك الشيخ عبد الهادي نجا الابياري

هو قاضي البلاغة الفاضل النـ ـدب الذي ظل في المعارف أوحد
ملك القول من يقسه بقس فهو لا شك في القياس مقدّمه
ما سمعنا بمثله عيسويا يتحدّى بمثل معجز أحمد
ألمعي لكنه عيسوي كان أولى بفضل دين محمد

وقد رد عليه الشاعر مارون النقاش بابيات طويلة قال في مطلعها

أيها السيد الخطيب لماذا قمت تبدي ما لم يكن فيك يعهد

ومنها : —

لا ولا الفخر بالمذاهب الا . بوم تصفو فيه الوجوه وتكمد
فملام انزلقت في غير وقت تتعدى لفتح باب مسدد
نحن في عصر والمودة تنمو والتداني بين الفريقين يوجد

واصاحب الترجمة أبيات حكمية جرت مجرى الامثال وهي متداولة كثيرا على الالسن منها

من عاش بالتقتير من ذوي الغنى فانه أفقر من فوق الثرى
كل يعد نفسه نعم الغنى فمن هو المقسم منا يا ترى
لا يحمد القوم الغنى إلا متى مات فيعطى حقه تحت البلى
من قال لا أغلط في أمر جرى فانها أول غلطة ترى

---

(١) عبارة عن الاسنان (٢) نزل (٣) عبارة عن الخد (٤) اي حل للرجل الكريم ورود اليه .

يعرف كل حاله فيما مضى الا الذي كان دنيئاً فارتقى
وكل من لا خير منه يرتجى ان عاش أو مات على حدّ سوا

وفي عام ١٨٩٦ أصيب بمرض عضال فنلج فالجاً نصفياً عطل نصفه الايسر ثم أصابته سكتة دماغية فتوفي فجأة في اليوم الثامن من شهر فبراير (شباط) عام ١٨٧٩ في منزله الكائن في زقاق البلاط في بيروت واحتفل بدفنه احتفال مهيب اشترك فيه العلماء والكبراء وعلية القوم من مختلف الملل ثم دفن في الزيتونه بمدفن الروم الكاثوليك ونقشوا على ضريحه أبيات جاء في مطلعها

هذا مقام البازجي فقف به وقل السلام عليك يا علم الهدى

وختمت بتاريخ هو

وجميل حظك في الاعالي رحمة أرخ وذكر في الصحائف خلدا

يا جهل عد

ماذا أفادَ العلمُ وهو سعادةٌ موهومةٌ عندَ الذين تتبَّعوا
فالأرض واجفةٌ بمخترعاتِهِ قطعٌ تروّعنا وأخرى تصرعُ!
والجوُّ ممتلئٌ بطيّاراتِهِ وبأرضنا تُلقي الخرابَ وتزرعُ
والبحرُ مضطخبٌ بغواصاتِهِ ودمُ الجنود كموجِهِ يتدفّقُ!
والشرُّ فاشٍ والشقاءُ مخيّمٌ والكذبُ يُضحكُ والحقيقةُ تدمعُ
والحرُّ مضطربُ الخواطرِ عانٍ يوم الصراحة والأديبُ مضيّعُ
والظلمُ يحكمُ والمطامعُ جمّةٌ والعدلُ يشكو والسياسةُ تسمعُ
والسلمُ «يُضرب» ثم يُطرح خارجاً والحربُ «تقسم» والمنيّةُ تجمعُ!
مدنيّةٌ جرّتْ ضروبَ كوارثٍ رجفتْ لوقعتِها الجهاتُ الاربعُ
يا علمُ سِر عنا فلستَ بنافعٍ يا جهلُ عُدْ إنّ الجهالةَ أنفعُ